ملامح العمارة التاريخية فى دولة الكويت

أ.د. محمود إبراهيم حسين
أستاذ الآثار والفنون الإسلامية
كلية الآثار ـ جامعة القاهرة

كانت دولة الكويت تعرف منذ أوائل القرن السابع عشر بالقرين، والتسمية بالقرين أو الكويت هى تصغير من قرن وكوت، والقرن يعنى التل أو الأرض العالية، والكوت بمعنى القلعة أو الحصن، وغلب اسم الكويت على الموقع فصارت تعرف باسم الكويت بدلا من القرين.

وقد وجدت تسمية "القرين" على خرائط الرحالة الأوربيين مثل الداتمركى "كارسين" عام ١٧٦٥ ومثل هذه التسمية كانت تعرف بها الكويت أيام حكم الشيخ عبد الله بن صباح ثانى حكام الكويت (١٧٦٢-١٨١٢) ولا زالت هناك منطقة فى جنوب البلاد تحمل اسم القرين.

وموقع الكويت يحده من الشرق الخليج ومن الشمال والغرب العراق، ومن الجنوب الغربى السعودية .

ويرجع الاهتمام بمنطقة الخليج إلى عصر النفط ذلك انه مع بدء عصر النفط امتلأت المكتبات ودور النشر بالمنشورات باللغة العربية واللغات الأوربية بطريقة مبالغ فيها فى بعض الأحيان عن الكويت بصفة خاصة وعن منطقة الخليج بصفة عامة والملاحظ على هذه المنشورات إنها كلها أخذت المنهج السردى والأسلوب الصحافى الخطابى فى تناول تاريخ وحضارة المنطقة ولا شك أن حرب الخليج الأولى والثانية ساهمتا فى إلقاء الضوء من جديد على منطقة الخليج سواء فى الأوساط السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية ، بدأت مرحلة جديدة من النشر العلمى التى اعتمدت الى حد كبير على منهجية جديدة ، ولكنها لم تخل من وجهة نظر.

وبصفة عامة على الرغم من كثرة ما نشر ، إلا أن أحداً لم يهتم بدراسة المعالم التاريخية القائمة فى منطقة الخليج بالشكل العلمى المطلوب ، وفى البداية تركزت الدراسات فى المقام الأول على الآثار وخاصة البقايا العسكرية من قلاع وحصون وأبراج وخاصة فى منطقة عمان والإمارات وبعضها الأخر تركزت علي المقابر كما هو الحال فى البحرين ولم يركز أحد على المباني الصغيرة القائمة مثل المنازل القديمة أو المساجد التى تعود إلى فترات تاريخية ليست بالبعيدة نسبيًا .

ومن هنا كان اهتمامى بمسألة المبانى التاريخية القديمة بالكويت ، وخاصة أن هذه المبان أصبحت مهددة بشكل كبير وقوى ، فلا زال حب التحديث والقضاء على الأحياء القديمة ، هاجس يبرره الرغبة فى التحضر وبناء عمارة عصرية تعكس حالة الرفاهية التى تسود هذه المجتمعات .(لوحة١)

ولذا فإن هناك سباق الزمن بين الجرافات والدراسات ، ومن هنا جهدى الأول انصب على المسح المبدئى لهذه المبانى ، ورفعها معمارياً تمهيداً لدراستها بطريقة تحليلية وأكثر عمقًا.

ولا شك أن منطقة الخليج بصفة عامة ، وبطبيعة الحال الكويت تمثل شكلاً من العمارة المتميزة التى تجمع بين خصائص العمارة الصحراوية والعمارة الساحلية وظلت منطقة الكويت ممر دولى يربط الشرق بالغرب ، ولا تزال تحتفظ بهذه الميزة الإستراتيجية حتى الآن . ومن هنا جاءت العمارة بالكويت معبرة عن هذا الاتصال الحضاري وعاكسه له .

والمبان التاريخية بالكويت شملت كل أنواع العمائر الحربية منها ، والمدينة والدينية ولعل السور الذى كان يحيط بمدينة الكويت وما تخلله من بوابات لمرور الناس من الداخل الى الخارج ، ومن الخارج للداخل هو أقدم أمثلة العمارة الحربية ، وقد أقيم هذا السور حول المدينة فى عهد الشيخ الصباح الأول عام ١٧٩٨م ، والسور الثانى فى عهد الشيخ سالم المبارك عام ١٩٢٠م وكانت المادة المستخدمة فى بناء الأسوار هى الطين ، وقد شيدت هذه الأسوار بحث تبدو سميكة من أسفل ١,٥ متر ويقل السمك كلما ارتفعنا حتى تصبح حادة عند قمة السور .

ويتخلل هذا السور مجموعة من البوابات تغلق ليلاً ومن أهم هذه البوابات " بوابة الشامية " التى سميت بهذا الاسم نسبة الى مجموعة آبار المياه العذبة القريبة منها ، وبوابة الجهراء وكانت تسمى بهذا الاسم لأنها تقع على الطريق المؤدى الى الجهراء وبوابة بنيد الجار والتى سميت بهذا الاسم لوجود رواسب قار بالقرب منها.

ويجدر الإشارة هنا الى أن التصميم المعماري للبوابة كان عبارة عن بروز فى السور يتوسطه باب خشب ذو مصراعين، والملاحظ أن واجهة البوابة كانت تعلو شرفات مسننة من أعلاها وفى أسفل هذه الشرفات توجد مجموعة من أنابيب تصريف المياه ثم مجموعة من المزاغل تبلغ ثلاثة وأحيانا أربعة، وذلك للدفاع عن المدينة فى أوقات الحصار.

وقد تطرق التلف الى بناء السور نتيجة لعوامل التعرية من مطر وحرارة وكذلك نتيجة لزحف المبانى الحديثة على أجزاء السور المختلفة وخاصة بعد انتشار العمران خارج السور، فأصدرت الحكومة الكويتية قرار بهدم السور سنة ١٩٥٧م فأزيلت أجزاء السور وتركت البوابات الخمس بالقرب من أماكنها الأصلية للتذكير بالسور، وإذا كانت العمارة الحربية قد زالت تقريبا من الكويت، فإن نماذج كثيرة من العمارة المدنية لا زالت قائمة فى معظم أنحاء المدينة القديمة ويقصد بالعمارة المدنية هنا مجموعة الدور والمنازل التى أعيد ترميم بعضها أو تلك التى ما تزال على ما هى عليه، كما تتمثل أيضاً العمارة المدنية فى مجموعة القصور القائمة أيضا.

وبصفة عامة فإن تصميم البيت الكويتى لا يخرج عن التصميم الشرقى للبيت وهو عبارة عن فناء مكشوف وحوله تلتف الغرف بصورة متوازنة، والحياة فيه الى الداخل، بينما لا يستطيع المشاهد أن يرى شيئًا من الخارج.(لوحة ٢)

ومن أهم النماذج التى لا تزال قائمة بيت البدر وهو نموذج معمارى للبيت الكويتى ويتألف من فناء مكشوف تدور حوله أجزاء المنزل الأخرى، وهى بدورها تأخذ الشكل نفسه لكن على إطار أصغر من السابق، وينقسم البيت الى أقسام هى القسم الخاص بجلوس الرجال، والقسم الثانى فهو الذى يعيش فيه الحريم، والقسم الثالث هو مكان زرائب الحيوانات.

أما بالنسبة للشكل الخارجى للمنزل فهو قليل الزخرفة نسبياً. والواجهة الرئيسية مسمطة، بمعنى أنها ليست بها زخارف، وتحتوى هذه الواجهة على مدخلين، مدخل رئيسى وهو عبارة عن مدخل معقود ويؤدى الى المساحة الداخلية المخصصة لاستقبال الرجال.

ويلاحظ أن الباب الرئيسى الموجود بالمدخل من الخشب ويوجد بداخله باب أصغر منه "خوخه" وكان يستعمل كمدخل وحيد للمنزل إذا أغلقت الأبواب الكبيرة، على أن واجهة المنزل تحتوى على مجموعة من فتحات التهوية والنوافذ للإضاءة، كما توجد فوق مستوى السطح مجموعة من الفتحات ربما لتصريف المياه.

والممر المحصور بين المدخل الخارجى والباب الخشبى الذى يؤدى الى الداخل فهى عبارة عن قباب متقاطعة.

كما يلاحظ وجود دكك للجلوس وخاصة أن المدخل الرئيسى كان يطل على الخليج. ويتشابه مع هذا النموذج البيت المعروف باسم بيت الغانم الذى يقع فى شرق العاصمة، قد استخدم الحجر والطين فى بناءه.

وأما البيت المعروف باسم بيت بهبهانى فهو يمثل ولاشك نموذجا فريدا للعمارة، فالواجهة تتألف من مدخلين تذكاريين (بارزين) تحيط بها من الجهة اليمنى واليسرى مجموعة من الفتحات والنوافذ المعقودة، والواقع أن ابرز ما فى هذا المنزل هو المدخل وهو عبارة عن عقد مدبب يقوم على عمودين يتقدمه باب خشبى، وبصفة عامة يعكس المنزل تأثيرات هندية سواء فى شكل النوافذ أو شكل الواجهة بصفة عامة.

وهناك نماذج تتشابه مع المنازل السابقة ولكن أقل حفظا مثل منزل "قبازرد" بالشرق وكذلك منزل "عبد العزيز الفليج" ومنزل "العوضى" فى المنطقة نفسها ومنزل "الرومى" بالشرق أيضا، والى جوار المنازل السابقة توجد مجموعة من القصور بعضها يقع داخل مدينة الكويت وخاصة فى منطقة شرق وبعضها الآخر فى مناطق مثل الجهراء وغيرها.

وظاهرة بناء القصور فى المناطق الصحراوية هى ظاهرة عربية قديمة سبق وأن قام بها بنى أمية وكذلك بنى العباسى.

ولعل أهم القصور الكويتية هو القصر المعروف باسم "القصر الأحمر" وهو مبنى من الطين الأحمر ويقع فى مدينة الجهراء، وموقع بنائه يدل على اختيار ذكى فهو مكان تتوافر فيه المياه الجوفية، وبالتالى تنمو فيه أشجار النخيل أما تاريخ بنائه يقع فى الفترة ما بين ١٩١٤-١٩١٥م وقد بناه الشيخ مبارك الصباح وأقام فيه من بعده الشيخ سالم الصباح.

والتصميم المعمارى للقصر عبارة عن بناء مربع الشكل تبغ مساحته ٦٠٧٢٦ قدما مربعا ويضم نحو ٣٢ غرفة كلها تدور حول الفناء الرئيسى المكشوف ولكن في أقسام متكاملة.(لوحة ٢،٣،٤)

والبناء من الخارج بسيط ولا يعكس مستوى ساكنيه، كما يغلب عليه شكل العمارة الحربية، وينقسم القصر الى عدة أقسام أولها سكن الأمير ويوجد فى الجهة الشمالية الغربية، والقسم الثانى عبارة عن مبانى خدمات مثل المطابخ وغرف معيشة الخدم والمخازن، والقسم الثالث مخصص للمسجد ويفصل بينه وبين سكن الأمير فناء

قصير، والقسم الرابع هو مساكن الجنود القائمين على حماية البناء، والقسم الخامس ويقع فى الجهة الشمالية الشرقية وهو مخصص للضيوف من البدو الذين يأتون بدوابهم التى خصصت لها ساحة كى تقف فيها، أما القسم الخاص بالديوانية فيقع فى الجهة الغربية من القصر، كما ألحق بالقصر إسطبل توجد به مرابط للخيل.

ومن الظواهر المعمارية الجديرة بالملاحظة بالقصر وجود العديد من الأبراج فى أنحاء القصر وهى مخصصة للدفاع ورد الأعداء، والتصميم العام لأبراج الدفاع عبارة عن مكان مرتفع توجد به مزاغل لوضع البنادق ويصعد اليها بدرج داخلى، والأبراج كلها متشابهة من حيث التصميم على أن عدد المزاغل يختلف من برج لآخر.

وعلى أية حال فإن القصر الأحمر يعتبر من الأبنية الكويتية التى شهدت أحداثاً تاريخية على قدر كبير من الأهمية مثل المعركة الشهيرة المعروفة بمعركة الجهراء .

وفى الوقت نفسه فإن عمارة هذا البناء تدل على فهم واضح من قبل المعمار الكويتى لطبيعة البيئة المحيطة به ، ويعبر بدقة ووضوح عنها سواء من حيث استخدام الخامات المتاحة فى المنطقة أو مراعاة الظروف المناخية .

ومن القصور الكويتية التى لازالت قائمة قصر الشيخ عبد الله الجابر الصباح وقد استعمل هذا القصر كمتحف قبل أن يبنى المتحف الوطنى الحالى ومن أهم العناصر المعمارية فى هذا البناء مجموعة العقود المفصصة التى تذكرنا بالعمارة الأندلسية من جهة والعمارة الهندية من جهة أخرى فضلاً عن مجموعة من الأعمدة الخشبية التى تحمل السقفية الداخلية للمبنى ، وبعض أشكال الخشب المفرغ الرائع التصميم ، بالإضافة الى نمط السقوف الخشبية المزينة بزخارف مجدولة ، وهو نمط من الأسقف الذي كثر استخدامه فى قصور القرنين الثامن والتاسع عشر ، كما سبق وأن رأيناها فى القصور المملوكية والعثمانية ، كما انتشرت الظاهرة أيضاً فى أوروبا فى مطلع العصر الحديث .

ويتشابه مع القصر السابق ، قصر يعرف باسم قصر الغانم ويتميز بوجود سقيفة ترتكز على ثلاثة مساند خشبية (كابولى) وتزخرفها زخارف نباتية .

ويشبه النموذج السابق قصر المغفور له الشيخ فهد السالم الصباح وهو عبارة عن مبنى مربع الشكل يتوسطه فناء مكشوف تتوسطه نافورة مياه متعددة الأضلاع والبناء من الخارج خال من الزخرفة تقريباً ، والملاحظ أن الغرف المطلة على الساحة الداخلية المكشوفة يتقدمها سقفية تقوم بدورها على أعمدة .

وأهم ما يميز هذا القصر الزخارف الهندسية الرائعة على الأرضيات ، وبالإضافة الى السقوف الخشبية المزخرفة بالمحتويات الخشبية .

العمارة الدينية :

يقصد بالعمارة الدينية فى الكويت ، المساجد ودولة الكويت على الرغم من صغر مساحتها إلا أن بها المئات من المساجد لتى شكلت بدورها عرضا رائعا لطرز معمارية مختلفة كما عكست أذواقا معمارية وتصميمات متباينة وخاصة فيما يتعلق بالمآذن التى تعلوها ، والمساجد الكويتية بصفة عامة هى نمط من مساجد الأحياء (

الصغيرة) ولا يوجد بالكويت مسجد جامع سوى الجامع الكبير الذى أنشئ بمنطقة شرق والذى يعتبر بحق مفخرة معمارية سواء من حيث الزخارف الموجودة فى داخله ، وهى أنماط من الزخارف الجصية الكثيفة والتى يمتلئ بها رواق الصلاة الضخم وهى تنقسم ما بين زخرف هندسية ونباتية وزخارف كتابية بكل أنواع الكتابات العربية وهى كلها عبارة عن آيات من القرآن الكريم .

وأما عن عناصر هذا المسجد المعمارية فهى مستوحاة من العمارة الإسلامية سواءً أكانت المئذنة التى تذكرنا بمآذن العصر العباسى ، وخاصة فترة السلاجقة ، وأما واجهة المداخل فتشبه المساجد الإيرانية فى الفترة التيمورية ، أما تصميم المسجد نفسه فينقسم الى قسمين ، قسم يسبق المسجد (حرم المسجد) والقسم الآخر هو المسجد نفسه أو رواق الصلاة وهذا التصميم وجد بطبيعة الحال فى المساجد العثمانية .

والمثير للدهشة أن الاختلاف فى الشكل الخارجى لم يمنع أنها كلها تتألف من كتلتين أساسيتين الكتلة الأولى هى ملحق المسجد ، والكتلة الثانية هى المسجد نفسه .

والمسجد هنا عبارة عن بيت الصلاة مسقوف تسبقه كما أشرنا غرف الخدمات (خزانات المياه وأماكن الوضوء ، بالإضافة الى دورات المياه) وفى معظم الأحوال تتوسط المئذنة المساحتين ، مساحة الفناء ، ومساحة المسجد نفسه ، أما الواجهة فهى فى معظم الأحيان خالية من الزخرفة ، ومزودة بالعديد من النوافذ وخاصة فى جدار القبلة (مسجد ياسين القناعى ، سعد أخو ناهض ، العجيرى ، المطبة ، ومسجد آل الخليفة) .(لوحة٥)

ويبدو هذا التصميم السابق فى معظم مساجد الكويت وخاصة فى منطقة القبلة أيضاً وشرق مثل مسجد بن حمد ، مسجد الساير(لوحة ٦) ، مسجد السعيد ، الذى اختلف بعض الشىء فى وجود السقفية التى تقوم على أعمدة خشبية ، ومسجد الشرهان ، ومسجد الخالد بالقبلة ومسجد مرزوق البدر ، ومسجد السرحان بالمنطقة التجارية الثانية ، ومسجد الحداد بالمنطقة التجارية التاسعة ومسجد الحمد بالمرقاب ومسجد الحمدان بالشرق ومسجد ملا صالح بالشرق ومسجد الرومى بالشرق أما بالنسبة لعناصر المسجد مثل المئذنة ، فنجد أن المعمار المسلم بالكويت قد حرص على إبراز أنماط مختلفة من التصميمات المعمارية لها فتارة يبنى المئذنة ذات القاعدة المضلعة والتى تعلوها شرفة مثمنة ثم بدن أسطوانى يعلوه شرفة مضلعة تنتهى بتدبب ، وقد ظهر هذا النموذج من المآذن بمسجد الجسار ومسجد الشرهان ومسجد العوض ومسجد المطران ، ومسجد ابن خميس ومسجد النصف ومسجد سعد أخو ناهض (لوحة ٧) وهناك نمط أخر من مآذن عبارة عن اسطوانة تبدأ من القاعدة وحتى القمة ، وقمة المئذنة كانت إما مدببة مثل مسجد بن هبلة ، وأبو هريرة ، والعجيرى ، والعدسانى وهناك بعض المآذن تنتهىبقبة مخروطة مضلعة وأحياناً غير مضلعة ، كما هو الحال فى مسجد مضف وإبراهيم إسحاق ، ومسجد النصف ومسجد الغزوان ، ومسجد عبد الرازق ، ومسجد الحداد وقد سبق ظهوره بالمنطقة التجارة الثامنة ويلاحظ أن بعض هذه المآذن كان يتركز على قاعدة تقوم على أرضية المسجد والبعض الأخر كان يقوم على سطح المسجد نفسه كما توجد بعض المآذن التى تنتهى بجوسق ، كما هو الحال بمئذنة مسجد المطبة ، ومئذنة مسجد السوق الكبير بالمنطقة

التجارية الخامسة كما توجد عناصر أخرى مثل الأعمدة أو العقود ، ويلاحظ أنها متنوعة الأشكال والطراز فقد وجدت بهذه المساجد أعمدة خشبية ذات تيجان مختلفة بعضها على هيئة ورقة نخيلية ذات جناحين مدمجين أو على هيئة تاج مربع يعلوه تاج مستطيل ، وأما المساجد التى تبنى حالياً فقد أخذت أشكالاً معمارية أكثر طرافة وفى نهاية البحث يمكن الخروج بالنتائج الآتية :

أولاً: العمارة الكويتية تتميز بالتوازن مع البيئة المحيطة بها ، كما أنها تتميز بالتكامل والبساطة .

ثانيًا: أنها عمارة تراعى التقاليد الاجتماعية وظروف البيئة المحلية .

ثالثًا : معظم المواد المستخدمة فى البناء هى مواد محلية من البيئة مثل الطين الأصفر والأحمر والأخشاب .

رابعًا : تمثل العمارة الكويتية خاصة المدنية والدينية ، نمط من الطراز المعمارى يعرف بين رجال العمارة باسم الطراز التلقيطى فهى عمارة استفادت من كل الطراز السابقة عليها ، كما استفادت من البلدان المحيطة بها ، يتضح ذلك من خلال الأنماط المختلفة من الأعمدة والعقود بموادها المختلفة وأشكالها المختلفة التى جمعت بين طرز معمارية فى أقصى شرق العالم الإسلامى وكذلك فى أقصى غرب العالم الإسلامى .

خامسًا: التصميمات العامة للمبانى بالإضافة لحجمها تخضع لحجم المبذول من الأموال فى البناء وحجم الثروة التى يتمتع بها صاحب البناء بالإضافة الى مكانته الاجتماعية .

سادسًا : فيما يتعلق بالمسجد فلا شك المسجد الكويتى القديم عكس نمطا محليا استفاد ولا شك من طرز معمارية رئيسية فى العالم الإسلامى ، إلا أنه ظل معبراً عن طابع خاص لم يوجد سوى فى الجزيرة العربية وهو نمط المساجد الصغيرة التى تستخدم للصلوات اليومية فيما عدا يوم الجمعة ، وهو يختلف عن مساجد الأحياء .

سابعًا: توجد بعض المساجد متشابهة التصميم مما يدل على أن المهندس الذى قام بالبناء أو الذى صمم البناء هو شخص واحد .

ثامناً : من أهم المشكلات التى واجهتنا عند دراسة العمارة الكويتية هى مشكلة التاريخ ، ذلك لأن هناك العديد من النماذج المعمارية وخاصة الحربية منها ربما كانت مؤكدة التاريخ ، بينما الأمر يصبح الى حد ما صعبا بالنسبة لبعض المباني المدنية ، عدا قصور الشيوخ التى غالباً من السهل التعرف تاريخ البناء من خلال الوثائق المتعلقة بالحاكم متى جاء إلى الحكم ومتى بنى هذا القصر بالنسبة لمباني الأفراد فقد دخل عليها الكثير من التعديلات ولا

نعرف على وجه التحديد عما إذا كانت هذه المباني ترجع في معظمها إلى فترات التأسيس والإنشاء أم فترات التجديد والترميم .

وبالنسبة للمساجد فإنها أكثر أنواع العمارة الكويتية قابلية للترميم والتجديد ولذا فإن الكثير من لوحات التأسيس أشارت الى عمليات الترميم والتجديد ، أكثر مما حملت لنا تواريخ التأسيس فيما عدا بعض النماذج البارزة مثل مسجد الخليفة الذى أسسه آل خليفة ١٧٣٧م ، ١١٥٠هـ كما أشارت الى ذلك اللوحة التأسيسية ، أو مسجد النصف التى أشارت اللوحة الى بنائه فى سنة ١١٩٠هـ ، ١٧٨٣م ، ومسجد عبد الرازق أشارت اللوحة الى بنائه ١٧٩٧م ، ومسجد المطبة أشارت اللوحة الى بنائه ١٨٩٣م ومسجد عبد الإله القناعى سنة ١٣٣١هـ .

وهكذا فإن معظم هذه المساجد القديمة أسست فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ولكن جرى عليها العديد من التعديلات الأمر الذى جعلنا ندقق ، فى الأمر من أجل مقارنة الوثائق بالشكل الذى عليه المسجد حتى نتيقن من أن هذا المسجد هو نفسه المسجد القديم .

تاسعًا: جرت العادة على دراسة العمارة الإسلامية من خلال رعاتها بمعنى إن المساجد كان يبنيها الحاكم والأفراد أو السلاطين ولكن الأمر هنا يختلف حيث أن طبيعة المكان نفسه (وهو مكان للتجارة) يلعب فى التجارة دورًا أساسيًا جعل معظم المساجد تحمل أسماء أصحابها من رؤوس العائلات التى اشتغلت بهذه المهنة قبل عصر النفط .

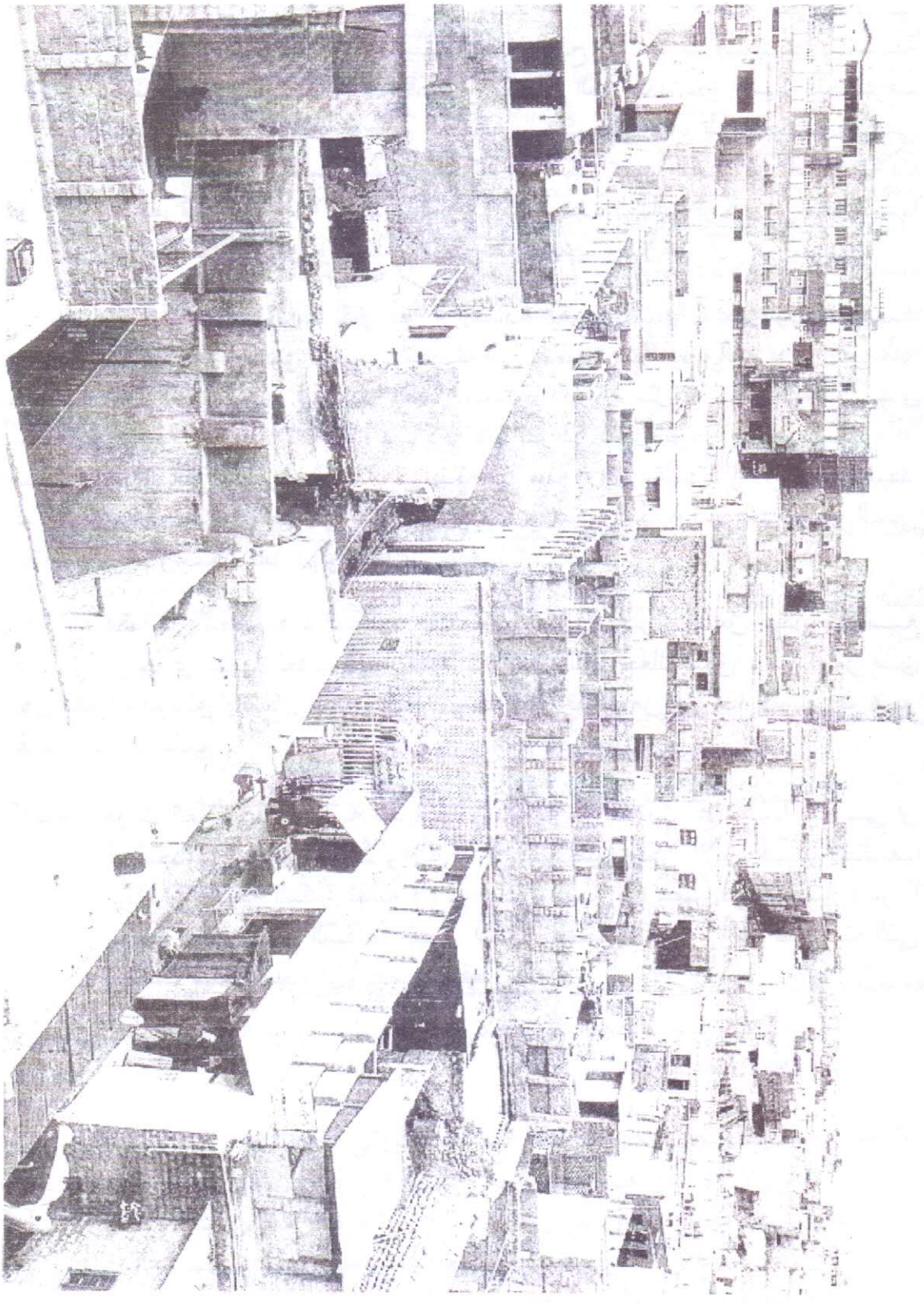

لوحة (١)
منظر عام للعمارة التقليدية بالكويت

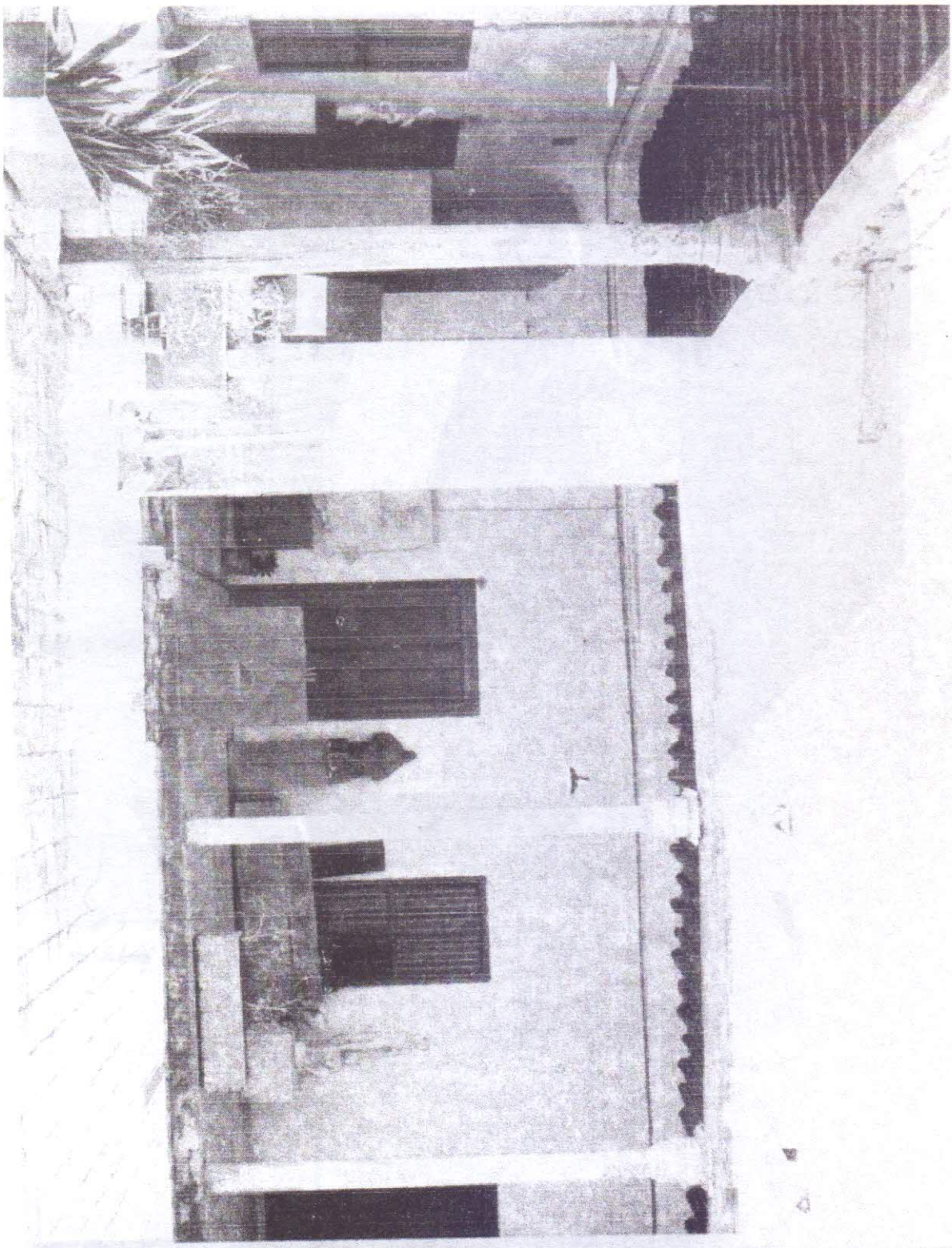

لوحة (٢)
الصحن الداخلى للبيت الكويتى
The liwan, the room doors and pillars.

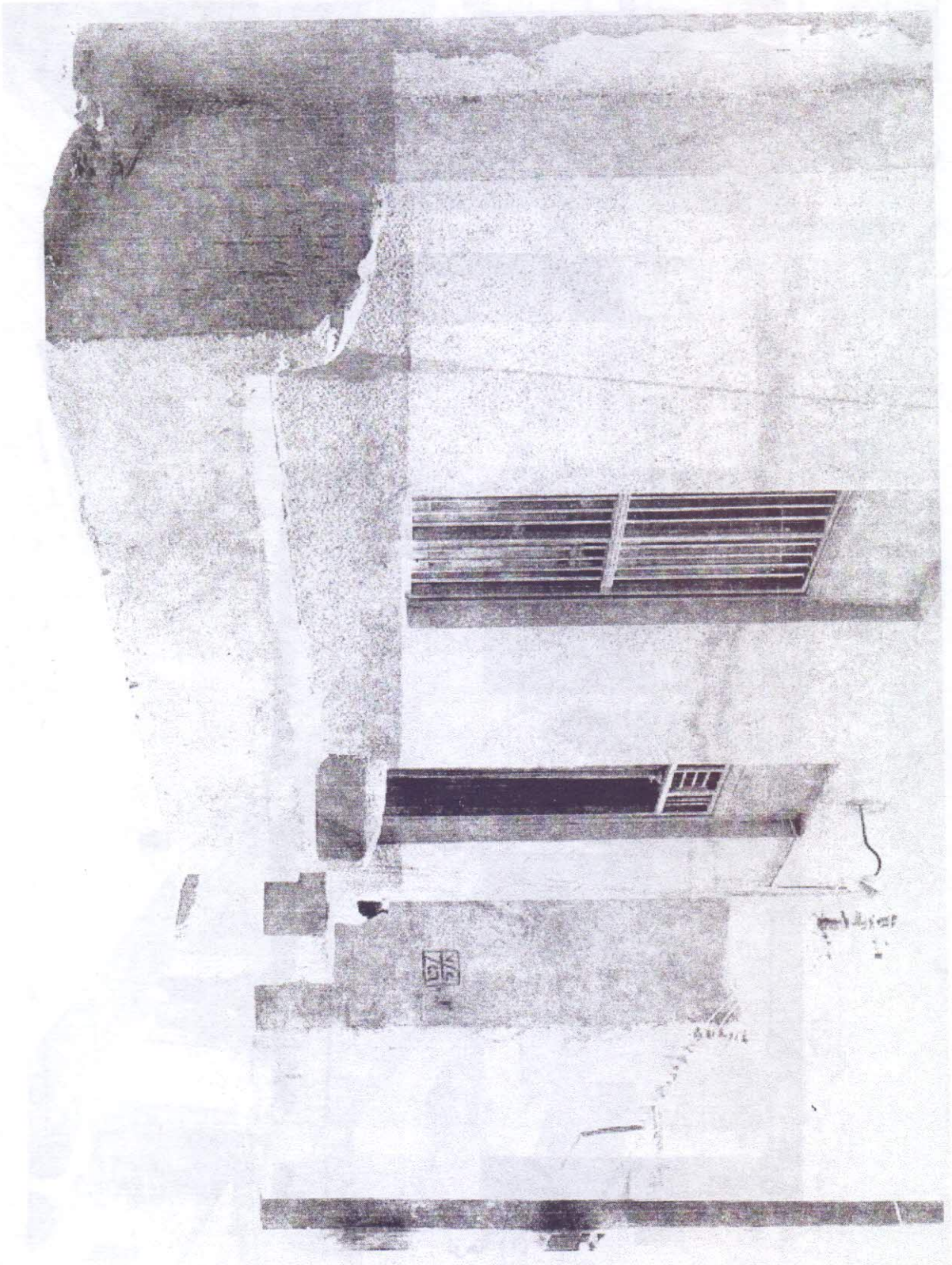

لوحة (٣)
المصطبة فى مقدمة المنزل
A mastaba near the door used for men to sit on.

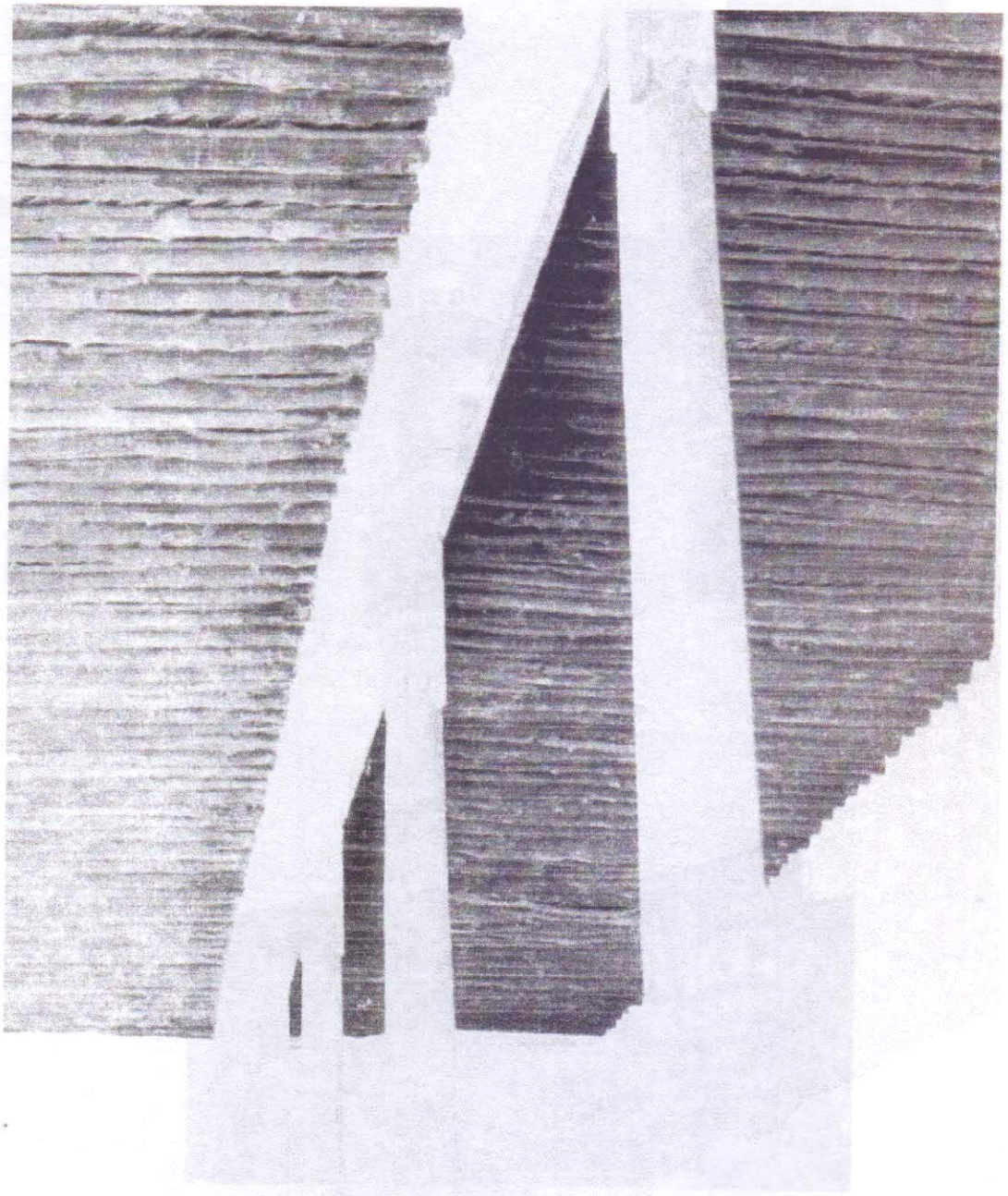

لوحة (٤)
الجندل من العناصر المعمارية الهامة فى العمارة التقليدية الكويتية
The Jandal of the liwan roof.

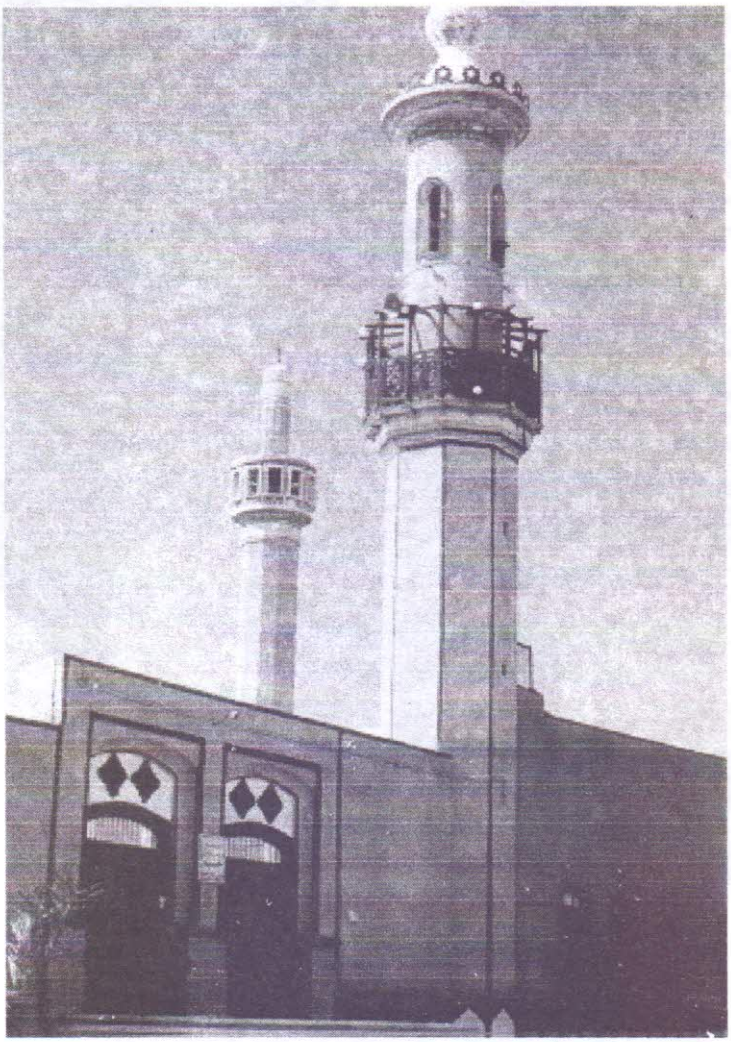

لوحة (٥)
مسجد الخليفة

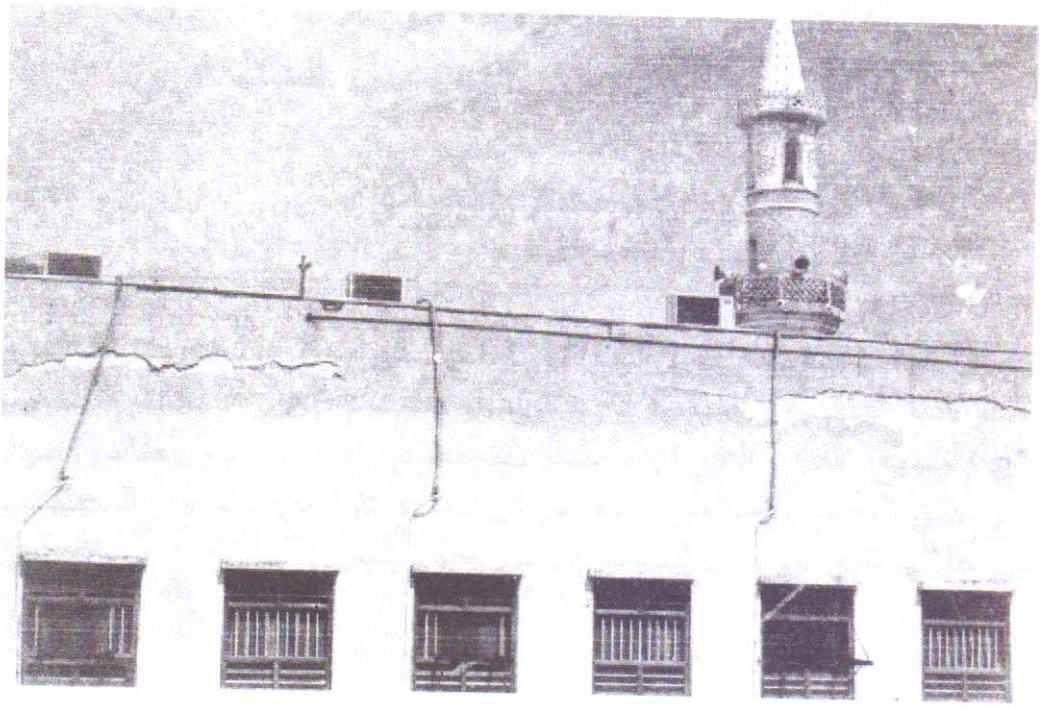

لوحة (٦) مسجد الساير الشرقى.

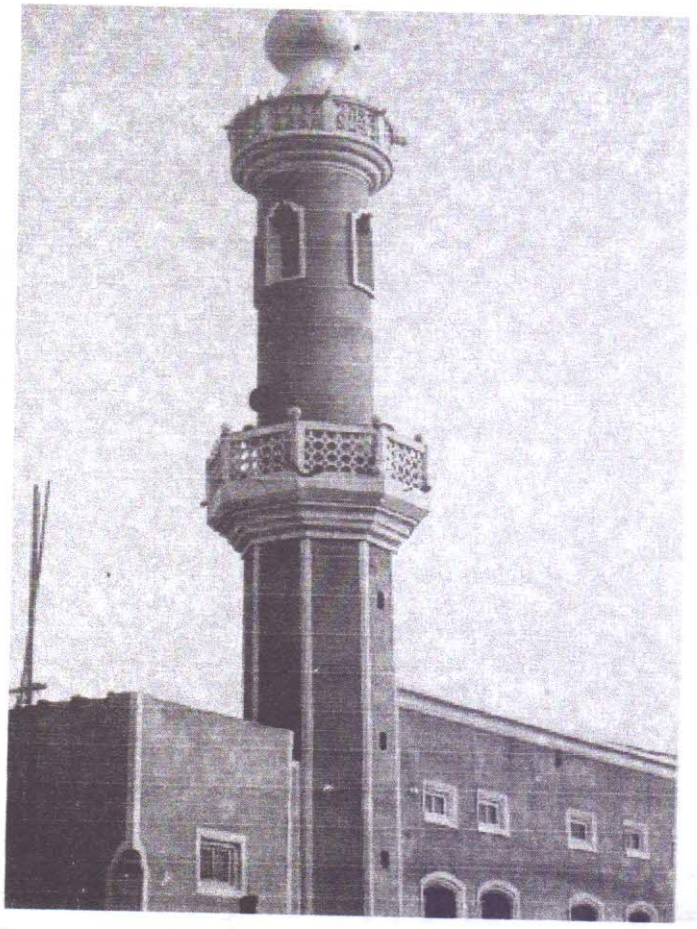

لوحة (٧) مسجد سعد أخو هض.